

## قصة قصيرة

## حيرة سيدة عجوز

### مهدى عيسى المضر

( طوبى لمن موطنهم في السماء )

لم يكن في صوتها أي شعور بالمرارة لكساد الموسم . اذا كان هذا حالها في الصيف ترى كيف يكون في الشتاء ! ؟ سألتها :

- هل يأتي أحد إلى هذه المدينة في الشتاء ؟  
قالت :

- بعض رجال الأعمال .. ليوم واحد أو يومين .  
- وماذا تفعلين اذن ؟  
قالت في استسلام :

- لا شيء .. أغلق باب البيت وأعيش وحدي .  
- أليس لديك أولاد ؟  
تركت سؤالها معلقاً بعض الوقت . قالت وهي تحمل القطة المتمنعة من فوق البساط وتضعها في حضنها :

- أنا لم أر في حياتي حيواناً يحب النار مثل ( ساندي ) !  
وأخذت تمسح بيدها على ظهر القطة التي تكورت على نفسها في حضنها . ولكي لا تبدو خشنة السلوك قالت أخيراً وهي تتأمل السنة اللهب في المدفأة :

- أنا عندي ولد وبنت .. ولكن انظر اليها .. كيف أخذت تحك وجهها الملتهب ! الحمقاء !  
وأخذت تضرب بيدها على رأس القطة في غضب مصطنع .  
تململت القطة وهي تحني رأسها وتقر في ضيق .  
- نعم .. أنت صغيرة حمقاء !  
- وهل يزورانك .. أقصد ابنك وابنتك ؟  
تأملتني في عتاب . ولكنها قالت أخيراً في شيء من الضيق :

- انهما يعيشان بعيداً .  
ولم تترك لي فرصة لطرح سؤال آخر ؛ سارعت تسألني :

- أتظن ( بن ) مريضاً ؟  
- لا أعتقد .. لا بد أنه نام متأخراً .  
كان المطر قد توقّف في الخارج ، ورأيت المارة يخطفون وراء النافذة بمظلات مطوية ؛ ولكن الغيوم الداكنة ظلت تسد علينا منافذ السماء .

\*\*\*

بعد دقائق سمعنا وقع خطى تهبط السلم ، ثم دخل علينا ( بن ) . قال وهو يتجه صوب النافذة :

- صباح الخير .. يا له من جو تعيس !  
وقف قليلاً يتأمل السماء الملبدة بالغيوم ، ثم استدار وجلس

الهواء في الخارج شديد البرودة . ومنذ يومين والسماء ملبدة بالغيوم والمطر ينزل ؛ يتوقف بعض الوقت ثم يعاود مرة أخرى .  
الآن يلمع على اسفلت الشارع ، وسطوح السيارات العابرة ، وسقوف المظلات المطرية التي تخفي وجوه المارة المتعجلين . في الصالة الدافئة تجلس صاحبة النزل - عجوز ضئيلة البنية جاوزت الستين - تتصفح جريدة اليوم . على البساط ، عند قدميها ، تتمدد قطتها البيضاء ، مغمضة العينين ووجهها قريب من لهب النار المشتعلة في المدفأة . وأنا أتأملها حيناً وحيناً أتطلع ، عبر زجاج النافذة ، الى حركة الناس والسيارات في الشارع ، والى السماء الداكنة . بحثاً عن فجوة بين طبقات السحب المتراكمة تتسلل من خلالها أشعة الشمس المفتقدة - وراء الشارع الأسود المغسول امتداد من العشب داكن الخضرة ، بفعل ظلال السحب ، ثم امتداد من الرمل والحصى المنقوع ، وبعد ذلك يأتي البحر ، فسيحاً بلون الرصاص الصدئي . رأيت صاحبة النزل تلقي بالجريدة فوق الطاولة وتحقق ساهمة في لهب المدفأة . سألتها :

- هل الجو عندكم هكذا كل صيف ! ؟  
رفعت وجهها اليّ :

- ليس دائماً .

ولكن المطر بهذا الشكل يؤثر على عملي .  
قالت :

- بالتأكد .

ثم انحنت على القطة وراحت تمسح رأسها بيدها المعروقة . فتحت القطة عينيها وتطلعت الى سيدتها متسائلة ، ثم عادت تضع رأسها بين قدميها مغمضة عينيها من جديد . قالت العجوز في حنان مثل أم تتحدث عن طفل لها :

- انها كسولة ، وتحب الجلوس أمام النار !

ونغزت ، برفق ، بطن القطة بطرف قدمها مداعبة ؛ لكن القطة لم تلتفت اليها هذه المرة . قالت العجوز وهي تنظر صوب مدخل الصالة :

- تأخّر ( بن ) في النوم !

كان ( بن ) هو النزول الوحيد الآخر . شاب في نحو الثلاثين ، وصل ظهر اليوم السابق . شاهده يخرج في المساء ولم أره بعد ذلك . قالت في اشفاق :

- لو كان يعرف أن الجو سوف يكون هكذا .. !

- أنت تشتغل في مأوى ؟  
 - أنا أعمل ممرضاً في دار للمستنّين . عمل متعب ، فأكثرهم مرضي ، وبعضهم لا ينام . نضطر الى حقنهم بالمهدئات ؛ لكن حقن المستنّين ليس بالعمل السهل ، فجلودهم تفقد طراوتها وتصبح خشنة مثل ( الاسبستوس ) ، فنضطر إلى غرز الابرة فيها بقسوة أحياناً .. هكذا !!  
 وكوّر يده وكأنه يمسك خنجرأ ثم طعن به الهواء بقوة . وجدنتني أتلقت صوب باب الصالة ، خشية أن تكون العجوز قد عادت ، ووقفت قريباً منا تتسمع ؛ ولكنها كانت لا تزال في المطبخ . قال ( بن ) متابعاً كلامه بصوت أوطأ قليلاً :  
 - أحياناً ، ونحن نغرز الابرة بهذه الطريقة ، نلمح الدموع تطفّر من عيونهم . ولكنهم لا يقولون شيئاً ؛ انهم فقط ينظرون اليك في عتاب ، وبشيء من الدهشة ، كما لو كنت من عالم آخر !  
 بدأت قطع الخشب اليابسة تطقطع في المدفأة ، وفي الخارج استمر المطر في الهطول . وبدأ البحر بعيداً جداً ، وكذلك الشارع والناس وحركة السيارات والمدينة وكل شيء آخر .  
 - وكيف يجيئون اليكم ؟  
 تأملني لحظة .  
 - من قال انهم يجيئون الينا ؟! ابناؤهم .. أقاربهم .. دائرة الضمان ..  
 وأمسك برأسه .  
 - السيدة العجوز على حق .. ما كان ينبغي أن أشرب كثيراً !  
 قلت له :  
 - هل آتيك ببعض الحبوب ؟  
 - لا لا .. سوف يخفّ الألم بعد أن أكل .. أنا هكذا دائماً ..  
 ليس هذا غريباً ؟!  
 وحاول أن يضحك ، غير أن موجة من الألم جعلت وجهه يتجهّم .  
 \* \* \*  
 لم يقل أحدنا شيئاً لبعض الوقت . وعادت النار إلى نضرتها السابقة في المدفأة ، وأصبحت الصالة أكثر دفئاً . ودخلت علينا العجوز تحمل قطنتها . قالت تخاطب ( بن ) :  
 - فطورك جاهز .  
 كانت لهجتها محايدة ؛ لم تكن جافة ولكنها كانت خالية من الود . لاحظ ( بن ) ذلك فقال مهادناً وهو ينهض :  
 - كم أنت عذبة !  
 حدجته بنظرة مستريية . وهو يتجه صوب غرفة الطعام . بدأ عليها انها لم تعد تطمئن اليه . التفتت صوبي .  
 - هل تحب أن آتيك بكوب من الشاي ؟  
 - لا .. شكراً .. لا تتعبي نفسك .  
 سألت وهي لا تزال واقفة عند الباب .  
 - هل تنوي الخروج الآن ؟  
 قلت لها :  
 - لا .. ليس الآن .  
 - إذن سوف أترك قطتي معك اذا سمحت . أريد أن أقوم بترتيب الغرف .  
 وأنزلت قطنتها إلى الأرض ، فمضت هذه صوب المدفأة ، وتمددت على البساط قريباً من النار المشتعلة . فهزت العجوز رأسها

قريباً من المدفأة ، ومدد ساقيه .  
 - عندي صداع فطبع .. رأسي ينقلق !  
 قالت العجوز توبخه كما توبخ أم ابنها الصغير :  
 - لو لم تفرط في الشرب ..  
 ضحك هو في رضى .  
 - أنت على حق .. ولكن يا لها من ليلة !  
 ثم التفت الي .  
 - كان ينبغي أن تأتي . حدث شجار في الحانة بين فتاتين .. أوه يا إلهي كيف تعاركتا !  
 سألتها العجوز باهتمام :  
 - لماذا ؟  
 - لا أدري .. ربما خطفت احدهما عشيق الأخرى ، أو شيء من هذا القبيل .  
 سألتها العجوز :  
 - أولم يحاول الحاضرون الفصل بينهما ؟!  
 - ولماذا يفعلون ذلك ؟! كان مشهدهما مسلياً ..  
 قالت المرأة في استنكار :  
 - تقصد انكم وقتم تنظرون فقط ! ؟  
 رد ( بن ) في براءة :  
 - لا .. نحن انقسمنا إلى فريقين .. كل فريق يراهن على واحدة .. أوه كلما أتذكر .. كانتا مثل قطنتين شرستين تتعاركان !  
 كان ثمة ما يشبه الرعب يلوح في عيني العجوز وهي تستمع إلى كلماته مشدوهة ؛ ولكنه لم ينتبه اليها . كان مندفعاً في استعراض ما جرى في الحانة . قال متابعاً :  
 - كانت معركة حياة أو موت .. بالأرجل والأيدي والاسنان والأظافر . شعور منتوفة في كل مكان ، ودماء على الوجوه والأذرع والسيفان العارية ، وعلى الثياب الممزقة وأرضية الحانة ..  
 رأيت الفك الأسفل للعجوز يهبط ويرتفع في حركة تشنجية ، ويديها ترتعشان . قالت تقاطع ( بن ) وهي تحمل قطنتها وتنهض :  
 - لا .. هذا كثير جداً !  
 فتطلع اليها ( بن ) في دهشة وهي تغادر الصالة ، وتمتم في ارتباك :  
 - ولكن .. ماذا جرى لها ؟! هل قلت شيئاً أغضبها ؟!  
 \* \* \*  
 في الخارج عادت السماء تنثّ من جديد ، وانتشرت المظلات المطرية ، مرة أخرى ، فوق الهياكل المسرعة . و ( بن ) يجلس إلى جانبي يعاني صداعه وندمه في صمت . كانت تصلنا من جهة المطبخ طقطقة صحون ، وصوت العجوز وهي تنهر قطنتها في حنق بين حين وآخر . قال ( بن ) بعد فترة مستغرباً غضب العجوز المفاجيء :  
 - إنها عجوز رقيقة القلب .. مثل اللواتي عندنا .  
 - عندكم أين ؟  
 قال :  
 - في المأوى . ولكن ألا تشعر أن الهواء أخذ يبرد قليلاً هنا ؟  
 كانت النار قد خفتت قليلاً في المدفأة ، فنهض من مكانه وتناول ملقطاً راح يحرك به الجمر الخابي . ثم وضع فوق الجمر قطعاً جديدة من الخشب ، وعاد يجلس في مكانه . سألته :

في يأس ثم انصرفت .

\* \* \*

- كيف تشعر الآن .. بعد الأكل ؟

قال وهو يتناول الجريدة من فوق الطاولة .

- أحسن قليلاً .

وراح يقلب الصفحات وينظر إلى الصور دون اهتمام كثير ، ثم

رأيت وجهه يتلبد وهو يقرأ شيئاً . وسمعتة يقول بعد لحظات :

- لكن هذا فظيع !

ثم رفع وجهه الي :

- هل قرأت هذا الخبر !؟

أخذت الجريدة من يده الممدودة ، وأصبغه يشير الى المكان .

كان الخبر عن امرأة عجوز تعيش وحدها في شقة صغيرة مع قططها

الثلاث . عثروا عليها ميتة في فراشها بعد أن اشتكى الجيران من

رائحة غريبة . وكانت القطط - التي ظلت حبيسة معها في داخل

الشقة قد أكلت لحم وجهها وأجزاء من ذراعيها وساقها .

سألني ( بن ) باهتمام

- هل تظن أن السيدة العجوز قرأت هذا !؟

قلت له :

- لا أدري .. كانت الجريدة في يدها هذا الصباح .

قال وهو يتأمل القطة الغافية بالقرب من النار :

- أدعو من الله أن لا تكون قرأته .. أوه أيّ وحل هذا !

تطلع ( بن ) عبر النافذة لبعض الوقت ثم قال في انزعاج :

- هذا المطر المدمم !

ونظر الى ساعته . بعد لحظات سمعنا وقع خطى العجوز تقترب

من الصالة ، بعد أن فرغت من ترتيب الغرف . قالت وهي تدخل :

- جئت آخذ ( ساندي ) .

قال ( بن ) وهو ينهض :

- تسمحان لي .. يجب أن أخرج .. سأتي بمظلتني .

ولكنه قبل أن يغادر الصالة توقف ثم استدار عائداً كما لو تذكر

شيئاً . قال مخاطباً العجوز :

- هل أستطيع أن آخذ هذه الجريدة ؟ لم أقرأها بعد .

فاشارت له برأسها موافقة . خطف الجريدة من فوق الطاولة ،

وطواها ثم خبأها في جيبه ، وخرج مسرعاً . قالت العجوز وهي

تنحني على قطنها وتحملها من فوق البساط :

- أوه .. أن جسمها يكاد يشتعل . هل ضايقتك ؟

قلت لها :

- لا أبداً .. فهي لم تتحرك من مكانها عند النار .

سمعنا خطى ( بن ) المتعجلة تهبط درجات السلم ثم أطل علينا

برأسه ومخاطب العجوز :

- هل أتيت بشيء معي ؟

- شكراً .. فقط ابتعد عن تلك الحاة اللعينة !

كانت لهجتها ودودة بعض الشيء هذه المرة . وبدا هو مسروراً .

- كما تقولين يا سيدتي العزيزة .

ثم لوح لنا بمظلته وغادر الدار . بقيت العجوز واقفة في مكانها ،

تحمل قطنها التي بدت رخوة مثل كومة من العجين . انتظرت قليلاً

حتى رأته ، من خلال النافذة ، يمر على الرصيف ناشراً مظلته

السوداء فوق رأسه ، ثم قالت واجمة وكأنها تؤبن ميتاً عزيزاً :

- انه فتى طيب .. مثل كل الفتيان ، ولكن روحه - مثل

الآخرين -

لا أدري ماذا جرى لها ! لا أدري .. ان الحيوانات تفترس

عندما يعذبها الجوع ولكن .. على أي حال أنا لم أعد أفهم شيئاً

مما يجري .. أشعر أنني شخت كثيراً .. هل تفهم أنت شيئاً !؟

رحت أتأمل وجهها الذي بدا لي أكثر تغضناً في صمت . لم تكن

تنتظر مني جواباً . قالت أخيراً معذرة وهي تستفيق على متطلبات

حياتها اليومية كامرأة تدير نزلاً للمسافرين :

- آسفة .. لم أقصد ازعاجك .. حاول أن تستمتع بوقتك .

ثم غادرت الصالة وهي تكلم قطنها في حب :

- هيا بنا يا صغيرتي .. حان موعد طعامك !

العراق

## دار الآداب نغم

سلاسل

دار الآداب للصغار

لمجموعة من الأدباء

● تراثا بعيون جديدة

( ١٠ اجزاء ) للاستاذ سليمان العيسى

● غنوا يا أطفال

● اجمل قصص الاطفال في العالم

● شعراؤنا يقدمون أنفسهم للاطفال ( ١٠ اجزاء )

● شعراؤنا يقدمون أنفسهم للاطفال ( ١٠ اجزاء )

● سلسلة « صياح »

● سلسلة « صياح »

● لسلسلة « صياح »

● لسلسلة « صياح »

دار الآداب شارع البازمجي ، بناية مركز الكتاب ، ص.ب. ٤١٢٣ نخبة ٨٠٣٧٧٨

٢٠٢٩٨٦